بائع القصيد

توارى طيف أحلامه خلف أقنعة البؤس والشقاء التي تجثم فوق وجهه الفتي، ولا سبيل لإظهاره سوى سيل جارف من المعجزات المتناثرة عند أرصفة الضعفاء، سيل خال من الغثاء المنهمر من أفواه السكر والعربدة، خال من زعيق امرأة في منتصف الليل، خال من لطمات تتهاوى على وجوه طفولية تكاد لا تنطق.

كانت الأحلام تصعد به حيث أفق الحياة، فينسج من خيوط شمس الكون قصائد عذبة، يجسد فيها كل حلم تاه منه في خميلة التعقيد والقهر، ويغذي قريحته ببيان مقتبس من أنغام الصراخ المتواصل في قبرهم الذي يدعى بيت، فيغرد بفيه الجائع أروع ألحان قصائده التي تنقل واقع الحال عبر سكة الإبداع، لكن ثمة وحوش متلبسة بثياب البشر يحاولون دائما صيد الإبداع ونسبه إليهم مستغلين فاقة المبدع، وإبداع أسامة ليس كمثله إبداع.

ساعة الزمن ما زالت تمضي في كل بيت إلا في قبر أسامة، فعنده يتوقف الزمن، ولا يمضي به إلى مقتبل الشباب كي يحقق حلمه في التخرج والبحث عن عمل ما يعيل أمه المنهكة وأخوته شبه الجياع، ودواء ما يخلص أباه مما هو فيه، خيل له صوت أمه كأنين غزال يفترس وهي تناديه باختناق" قم يا أسامة، قم وخلصني مما أنا فيه، فأبوك ما يزال يعذبني، ورائحة خمره المنبعثة من فيه تكاد تسكرني... لا أريد أن أسكر يا بني فإخوتك سيستيقظون وهم جياع وأنا بحاجة لجزء من عقلي كي أتمكن من تأمين اللقمة لهم"

صعد الكلام عبر سلم مسمعه حتى استقر في أذنه وهمس له القدر أن أستسلم فهذا واقع حالك، وفج في صدره وميض إيماني كي يستمر فالحياة ما تزال بحاجة للمبدعين، أخرج قلمه من أعماقه وكتب قصيدة عن الشقاء، وأخرى عن البؤس، وثالثة عن الفقر، وزاد مداد قلمه في العطاء حتى صافح الكوارث المنسية.

رائحة الحريق كادت أن تحرق طيف الأحلام، فلم يكتف الشقاء بتوريته عن الأنظار إنما قد أصر على حرقه، مرت سحابة دخان أمام أنف أسامة، وبحلقت به متعجبة، كيف له أن يستجلب هذا الكم الهائل من الصبر وثيابه الجديدة تحترق أمامه، بل كادت أن تتحول لرماد يتراكم على إسفلت الحارة فوق المعجزات المتناثرة على حواف الأرصفة، لتبطئ من نهوضها وإسعاف أسامة مما هو فيه. فثيابه الجديدة التي اشتراها استعدادا للعام الجامعي الجديد قام أبوه بحرقها فهو بحاجة لمشروبه الخاص أكثر من حاجة ابنه للملبس، والملفت للنظر أن ثمن الثياب قد اقتطعت من أجرة أسامة بعدما عمل حمالا في إحدى المزارع القريبة من قبره في العطلة الصيفية.

لم يكن يتوقع بتاتا أن يطمس الخمر غريزة أبيه لهذا الحد، فلقد حاول جاهدا أن يجعله يترك دراسته ويلتحق بالعمل بشكل دائم كي يجني المال على الدوام، انطلق صوت عذب من صميم حنجرة أسامة يشبه تماما صوت قصائده العذبة " ما الذي يضيرك في دراستي ما دامت مجانية ولا أكلفك فيها أي فلس، تحملني ثلاث سنوات وسأكون كما تريد" كانت دراسته بمثابة دواودين ضخمة تضم قصائدة برفق، وتزف له البشرى بانطلاق شاعر جديد لم يكن له مثيل، إن همس همس شعرا، وإن نطق نطق شعرا، وإن تكلم تكلم شعرا، وإن عاش عاش بؤسا!

لم تتناثر الصرخات في سماء الصدى بشكل عشوائي، ولم تخرج من أعماق مجروحة سدى، إنما قد هزت كيان أسامة ولقحت في داخله مشاعر مرهفة ولدت قصائد عظيمة، حياة الضعفاء غالبا ما تبنى على الاقتصاد، فأسامة يحرص على استغلال الموجودات لصالحه، تماما كما استغل الصرخات المنبعثة من أفواه اخوته الصغار جراء ضرب والده لهم في تكوين أروع القصائد وأبهاها، وبالنسبة لزعيق أمه في منتصف الليل فقد كان يستخدمه قافية لكل قصائده لترن في طبلات آذان السامعين بقوة ، أمسكه أبوه من منتصفه ورفعه بقوة ثور هائج، ونعق في أعماق القبر نعيقا أسمع

آخر بيت من بيوت الجيران " عليك أن تترك الدراسة وتعمل، أريد نقودا، أريد نقودا، المشروب يعيد لجسدي روحه التي أفقدتموني إياها من وراء طعامكم اللعين، هل فهمت يا بني؟!". وستبقى اللطمات تنهال على الوجوه الطفولية مالم يغير أسامة رأيه، وستبقى أمه مجمعا صامتا لركلات قدم أبيه حتى يدبر أسامة النقود، حينئذ اختلجت مشاعر الألم أعماق الفتى، وانقشعت لعنة الصمت عن لسانه ليأسر الجدران المهترئة بحديثه " حسنا، كما تريد يا أبي، سأحضر المزيد من النقود، وستغرق بالخمر كيفما شئت، اتركهم أبي، أتركهم، فهم بحاجة لقليل من النوم بعد كل هذا العناء".

الصداقة الحقيقية تضفي على معنى الإنسانية رونقا ساطعا، وتملأ الحياة إصرارا وأمانا، ويستند إليها القرار حينما يريد أن يصدر، هذا ما كان يشعر به أسامة حينما يلتقي بهناء زميلته في الجامعة، لقد كانت مثالا يحتذى به في الإخلاص والصداقة، فقد كانت تبدي نصائحها لزميلها أسامة بكل أمانة وإخلاص وربما أن أهم نصائحها له عندما نصحته ألا يبيع القصيد!

قد يضطر الإنسان أحيانا لخطف قطعة من جسده كي يقدمها لأحبابه بكل سرور، فالعاشق يقدم قلبه لعشيقته وهو يضحك، بينما الأم تقدم كليتها لابنها إن احتاج وهي تبتسم، أما أسامة فقد قدم قصائده للناس وهو يبكي، لقد اضطر أسامة أن يبيع قصائده لطلبة كلية الآداب كي تساندهم على تحقيق أعلى الدرجات حينما يطلب منهم المدرس ورقة عمل أو تأليف قصيدة إن أمكن، ولأن المواهب تقتصر على فئة معينة من الناس، فقد هرع الطلبة نحو قصائد أسامة، فلم يتمكن من مجاملة هناء، ولم يصغ لها، فقد باع قصائده وانتهى الأمر وحينما عاتبته نبع صوت شجي من داخله " لو جربت يا هناء طعم الحصى لما اعترضت على بيع قصائدي، كل الذي أستطيع أن أقدمه لك في هذه اللحظة تعبيرا عن إحساسك ووقفتك معي هو هذه القصيدة، وعلى فكرة هذه القصيدة ثمنها غالي، ثمنها آه طويلة، أطول مما تتخيلين!).

ربما يلجأ الإنسان للتحايل كي يحقق ما يريد، وسواء وافقنا على فكرة التحايل أم اعترضنا، فإننا لن ننكر بتاتا أن أسامة قد نجح في إقناع أبيه حينما أوهمه انه ترك دراسته الجامعية والتحق بالعمل، فلم يخطر على عقل أبيه الملوث أنه من الممكن أن تباع الكلمات، مستبعدا أن الحياة بطولها وعرضها تباع بكلمة وتشترى بكلمة، بيد أن هناك اتجاه آخر للتحايل قد نجتمع معا في الاعتراض عليه كتحايل عمار على طلبة الجامعة، حينما نسب القصيدة التي ألقاها في أحد احتفالات الجامعة لنفسه، حيث أشاد الكل في قوة قصيدته، واكتمال خصائصها الفنية، رغم أن أغلب الحضور أجمعوا على فقدان إحساس عمار بالقصيدة رغم قوتها، وكأنه ليس صاحبها، وبالفعل لم يكن صاحبها، فأسامة قد اشترى لحما لأهله من ثمن قصيدته المباعة. وقد وصلت باقي المبالغ لجيب أبيه، فلينعم الجيران بطعم النوم الهادىء!

تعبيد الطرق غير المشروعة يحظى بالاهتمام أكثر من تعبيد الطرق المشروعة، وإن عم الفساد في الأرض فسينتشر كما الذر، لذا تفشى العجب في كيان الأستاذ عصام السائد، فلم يكن يتوقع في يوم من الأيام أن معظم طلبة كلية الآداب سيصبحون شعراء من الدرجة الأولى بين ليلة وضحاها، فبحث في الأمر حتى تبين أن قصائد طلبة الآداب تعود لأسامة، وأنه يبيعها لهم مقابل مبلغا من المال ليحصلوا على تأليف أصيل لم يكتب من قبل، الأستاذ عصام عضو هيئة تدريس في كلية الآداب، يناهز الخمسين من العمر، وقد أتيح له في حياته الكثير من النعم، فلديه المال والبنون والمكانة الاجتماعية، لكن كان ينقصه تحقيق الشهرة الواسعة التي كان يحلم بها طيلة حياته، لذلك عمد للشعر بحكم تخصصه الأكاديمي ونظم منه القليل دون أي موهبة، فخلا قصيده من الأحاسيس الصادقة والمشاعر الجياشة.

إذا توافر المال في غياب منظومة القيم، فستخضع المشاعر الإنسانية للتسعير بلاشك، وسيفقد الفقير حقه في ملكية الإبداع، فربما أنه صار للإبداع أسواق، وقصائد أسامة لم تعد اليوم ملكا له، فلقد

قرر الأستاذ عصام شرائها، وربما أنه كان يمتلك وجهة نظر خاصة به كي يتمكن من اقناع أسامة حينما قال له بثقة" لقد خلقنا الله في هذا الكون لإحداث التوازن يا بني، فكما تلاحظ أن الله أنعم عليك بقريحة الشعر ولم يمنحك المال، بينما قد منحني المال ولم يمنحني موهبة الشعر بالرغم انني قد خضت بحر هذا المجال، فلم لا نقدم لكل واحد منا ما ينقصه؟!" كانت كلماته تدوي في أذن أسامة كوقع الرعد في عمق الغيم، وأشد ما اثر على محيط أذنه هي كلمة بني التي انطلقت من في الأستاذ عصام للتو، لقد شعر أنه يشترك مع أبيه في هذه اللحظة بشكل كبير فحاجة أبيه للخمر لا تقل أهمية عن حاجة الأستاذ عصام للقصيد، وقد لفظ الإثنان كلمة بني لتحقيق المراد!

تخضع حياتنا ككل لأولويات مرتبة، فإذا لم نحقق الأساس لن ننطلق للأعلى مهما حاولنا، وإن لم يتوافر الخبز لن يتم التفكير في المسكن أبدا، وربما أن أسامة لم يستطع أن يفكر بالشهرة الأدبية، والدواوين المطبوعة، والأمسيات المتعاقبة، وربما أنه لم يدرك تماما مدى قدرته على تلوين المستقبل بأجمل الألوان، فالمعجزات المتناثرة تكاد تظهر لكن استغلال البشر لها منعها من الظهور في حياة أسامة، كانت مطالبه تدور حول محور واحد، وأصبحت البسمة تتسع على فيه شيئا وشيئا وهو يسرد ثمن قصائده على مسمع الأستاذ عصام" أريد طعاما، طعاما كثيرا، ولا بأس في القليل من اللحم، أريد أن أعيش في بيت بسيط يملؤه الأمان، خال من الغثاء المنهمر من أفواه السكر والعربدة، خال من زعيق امرأة في منتصف الليل، خال من لطمات تتهاوى على وجوه طفولية تكاد لا تنطق. أريد أن يعود أبي كما ولدته أمه، أريد أن أتكفل في تربيته من جديد، أريد أن أصنع منه أبا عظيما، وزوجا طيبا، أريد أن أمدحه في قصيدة طويلة تتألف من ألف بيت أو أكثر فأبيعها لك بأغلى الأثمان، صدقني يا أستاذ أنها ستصل بك لأعلى مستويات الشهرة، كما أنني أريد أن أنام، كي أتمكن من سبك القصيد، أريد أن تنام حارتي بهدوء، أريد أن أكون إنسان" كان أسامة يشعر وهو يقول مطالبه أنه طائر يحلق في سماء الجنة،

كان يظن أن ثمن قصائده لن تغطي تكاليف ما طلب، فهو يطلب المستحيل من وجهة نظره بينما كان المستحيل عند الأستاذ عصام عبارة عن قطة يربيها في بيته قد حققت مطالب أسامة منذ أن اقتناها الأستاذ عصام.

في كل زمن من الأزمان يولد المبدعون، وتظهر سمات التميز على وجوه معينة دون سائر الوجوه، وقد كان أسامة من ضمن هؤلاء المبدعين، لذلك فقد أنتج من القصائد مالم ينتجه أي شاعر من جيله، وسبك من معسول الكلام أبياتا من الشعر لم يسبكها أي شاعر في وقتنا الحاضر، فسماء موهبته ما زالت تمطر على أرض الأستاذ عصام كلمات ذهبية، وباع كل قصائده وما أنتجه للأستاذ عصام مقابل تحقيق المطالب، حتى صدرت الدواوين الشعرية المميزة باسم الشاعر عصام السائد، وهذا ما جعل الإعلام يصخب، والمجلات الأدبية تتصارع على حلبة اللقاء الحصري، وهذا ما جعل الأستاذ عصام السائد شاعرا متمكنا وقويا رغم بداياته المتواضعة، لذلك وجب إقامة حفل خاص لتكريم الأستاذ عصام وتتويجه للحصول على لقب أفضل شاعر في هذا العصر بعدما ذاق أسامة طعم الخبز.

النهاية